تأثير اللهجات العربية في الإبدال الصوتي

عبد القادر أحمد عبد الله الحمزي[١]،

د. عبده بي[٢]،

د. سابق إم كي[٣]

الملخص

تتناول هذه الدراسة ظاهرة الإبدال الصوتي في اللغة العربية، باعتبارها إحدى السمات البارزة التي تعكس التنوع الجغرافي والاجتماعي للهجات العربية. تهدف الدراسة إلى تحليل الإبدال الصوتي من منظور صوتي وصرفي، مع التركيز على العلاقة بين الإبدال الصوتي وتطور اللهجات في السياقات التراثية والمعاصرة. تعتمد الدراسة على المنهج الوصفي والتحليلي لاستقصاء العوامل المؤثرة في حدوث الإبدال، وتقديم رؤية أعمق لفهم ديناميكيات اللغة العربية وتنوعها عبر الزمن.

الكلمات المفتاحية: الإبدال الصوتي، اللهجات العربية، الفونولوجيا، التنوع اللغوي.

المقدمة

يُعدُّ الإبدال الصوتي ظاهرة لغوية غنية بالدلالات، تعكس تأثير البيئة اللغوية والاجتماعية على تطور الأصوات في اللغات واللهجات، ففي السياق العربي يُظهر الإبدال حضوراً واضحاً في اللهجات المختلفة، إذ يؤدي إلى تغييرات صوتية تتباين من

---

١ عضو هيئة تدريس مساعد بجامعة المحويت- اليمن، باحث في كلية إم إي إس ممباد، جامعة كاليكوت- الهند.

٢ عبده ب. أستاذ مشارك ومشرف البحث، كلية الحكومية السنسكريتية بتامبي، كيرلا الهند.

٣ د. سابق أم. ك. نائب عميد كلية إم إي إس ممباد لشؤون الجودة، كلية ممباد، كيرلا الهند.

بيئة إلى أخرى، مثل تحويل السين إلى صاد أو التاء إلى طاء. هذه التغيرات الصوتية لا تعكس فقط التنوع الجغرافي والاجتماعي، بل تُبرز كذلك التفاعل بين اللهجة والفصحى.

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على تأثير اللهجات العربية في الإبدال الصوتي، من خلال تحليل هذه الظاهرة في سياقها التراثي والحديث. كما تسعى إلى استكشاف العلاقة بين الإبدال الصوتي وتنوع اللهجات، مع الأخذ بعين الاعتبار المفاهيم الصوتية والصرفية الحديثة، مما يُسهم في فهم أعمق لتطور اللغة العربية عبر الزمن.

الإبدال الصوتي

لغةً: بَدّل الشيء غير صورته، ويقال بدَّل الكلام حرَّفه، وبدَّل بالثوب القديم الثوب الجديد، " بإدخال الباء على المتروك " والشيء: شيئا آخر: بدّله مكان غيره، ومنه جعله بدَلَه مكان غيره، ومنه جعله بدَلَه[١]، وفي التنزيل العزيز: (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ).[٢]

ويعرف الإبدال الصوتي اصطلاحاً بأنه: تغيير يحدث في حرف آخر غير أحرف العلة والهمزة مثل تغيير اصتبر إلى اصطبر، بإبدال حرف (التاء)، بحرف (الطاء)، وتغيير (اذتهر) إلى (ازدهر)، بإبدال التاء دالا.[٣]

رفع الشيء ووضع غيره في مكانه، والإبدال اللغوي أو الاشتقاق الكبير يسمى أيضاً: (البدل والمبدل منه، والقلب والمقلوب، والمحوَّل، والمضارعة، والتعاقب، والنظائر).

---

١ (مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٧٢)، الجزء: (١)، ص: (٤٥)

٢ سورة النحل، الآية: (١٠١)

٣ (ع. إبراهيم ١٩٦٩م)، ص: (٣٧)

يُعدُّ الإبدال ظاهرة لغوية صوتية دلالية؛ تعني إقامة حرف مكان حرف مع الإبقاء على سائر حروف الكلمة، وبذلك قد تشترك الكلمتان بحرفين أو أكثر، ويُبدل حرف منهما بحرف آخر يكون متقارب منه مخرجاً أو صفة أو يشتركان في المخرج والصفة معاً، نحو (قضب، وقضم)، أو (قطع، وقطم)، فقد اشتركت الكلمتان الأوليان بحرفي (القاف، والضاد)، واختلفا (بالباء، والميم)، أحدهما مبدل من الآخر، وكلاهما من مخرج واحد فهما حرفان شفهيان، وأما الكلمتان الأخريتان فقد اشتركتا لفظتاه أو صورتاه بحرفين منهما (القاف، والطاء)، واختلفتا (بالعين، والميم)، غير أن العين حلقية والميم شفهية.

ولا يُقيَّد الإبدال بالحرف الثالث من الأصل الثلاثي، أي بلام الفعل، وإنما قد يطرأ الإبدال على الحرف الأول وهو فاء الفعل نحو: (خبن، وغبن) أو على الثاني وهو عين الفعل نحو: (رسم، ورشم)، وقد تكون اللفظتان رباعيتين نحو: (تَوْلَج، ودَوْلَج)، والبدل في الحرف الأول منهما، وقد تكونان خماسيتين والبدل في الحرف الثاني نحو: (جرسام، و (جلسام)[١] ، وقد تكونان سداسيتين نحو: (اعرَنْكَسَ الليل)، و (اعلَنكس إذا أظلم).

وفي سياق آخر؛ فإن كل إعلال يقال له إبدال، ولا يكون العكس، فخرج بالإطلاق الإعلال بالقلب لاختصاصه بحروف العلة، إذ يجتمعان في نحو: (قال، ورمى)، ويتفرد الإبدال في نحو (اصطبر، واذَّكر).[٢]

أذن فالإبدال من خلال التعريف هو إحلال حرف مكان حرف آخر، على أن يكون الحرف غير حرف العلة، لأن حرف العلة عندما يبدل بحرف آخر فهذا ما يسميه علماء الصرف إعلالا، ولو قلنا إن الإعلال هو الذي يصير حروف حتى تنتقل إلى حروف أخرى، فهو قد اقتصر على حروف العلة، أما الإبدال فهو استبدال مطلق

---

١ (السمّ، وتسمية العامة: البِرْسام)

٢ (النابي ٢٠٠٥م)، الجزء: (٢)، ص: (٧٤)

للحروف دون استثناء شيء منها، ويشمل بذلك الحركات أيضا.

اللهجة

للتمييز بين اللهجة واللغة الفصحى لابد من تعريف اللهجة، كما أن هناك إبدال يسمى إبدال لهجي؛ حيث يصنف الإبدال الذي لا يتبعه تغييراً في المعنى بصنف الإبدال الشكلي أو اللهجي وسيتضح من خلال تعريف مفهوم اللهجة وكذا تبيين أنواع الإبدال في الباب التالي.

اللهجة لغة: "اللَّهْجَة، واللَّهَجَة"؛ طرف اللسان واللهجة، وهي جرس الكلام والفتح أعلى أي (اللَّهَجَة) مع أنها بالسكون مستخدمة بكثرة حالياً، يقال: فلان فصيح اللهجة بالفتح والسكون، وهي لغته التي جُبِل عليها فاعتادها ونشأ عليها، واللهجة: اللسان، وفي الحديث: ما من لهجة أصدق من أبي ذر.[١]

اصطلاحاً: يعرف الدكتور إبراهيم أنيس اللهجة بأنها مجموعة من الصفات اللغوية، تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة، وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل تضم عدة لهجات، لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعها في مجموعة من الظواهر اللغوية؛ التي تيسر اتصال أفراد هذه البيئات ببعضهم.[٢]

هناك من يرى اللهجة وخاصة العامية العربية انحراف عن الفصيحة؛ في الأصوات والصرف والنحو، ويفسر هذا الانحراف بالتأثر بلهجات القبائل العربية القديمة، ونتج بعضهم جراء ابتعاد الناس عن الفصيحة بسبب تشجيع الاستعمار لاستعمال العامية.[٣]

---

١ (ابن منظور، ١٩٧٠)، الجزء: (١٣)، ص: (٨٦)

٢ (أنيس، في اللهجات العربية، ٢٠٠٣)، ص: (١٥)

٣ (مغلي، ٢٠١٣)، ص: (١٠٧)

يعرف محمد علي الخولي اللهجة بقوله: " هي الطريقة التي يتكلم بها الناس اللغة، والتي كثيرا ما تدل على انتماء جغرافي أو اجتماعي أو ثقافي، وبذلك قد تكون اللهجة جغرافية أو اجتماعية، ولكل لغة عدة لهجات؛ لكل منها صفات خاصة تميزها عن سواها من ناحية صوتية أو مفرداتية أو نحوية، أو صرفية.[١]

اللغة العربية (الكلاسيكية، الحديثة، العامية)

تطورت اللغة العربية إلى ثلاثة أصناف أساسية[٢]:

١. اللغة العربية الكلاسيكية.
٢. اللغة العربية الفصحى الحالية أو الحديثة
٣. اللهجات العربية العامية الحالية.

فاللغة العربية الكلاسيكية هي: أقدم أشكال اللغة العربية الناشئة بين القرنين السابع والتاسع عشر، وهي الشكل المستخدم في القرآن الكريم، أما اللغة العربية الفصحى الحالية: فهي الشكل الذي يظهر بعد القرن العاشر الميلادي حتى وقتنا الحالي، وهو الشكل الأكثر تشابهاً مع اللغة العربية الكلاسيكية من حيث المعجم والقواعد النحوية، والواقع أن المتحدثين الحاليين باللغة العربية لا ينظرون إلى أنهما لغتين منفصلتين؛ بل يعتبرونهما لغة واحدة يسمونها "العربية الفصحى".[٣]

من المقبول على نطاق واسع أن اللغة العربية الكلاسيكية هي مجموعة صلبة مغلقة من المفردات والقواعد، أي أنها لا تسمح بالتجديد في معجمها اللغوي وهيكلها، في حين أن ما يُسمى باللغة العربية الفصحى الحالية أو الحديثة تعتبر معياراً من حيث مسماها ووصفها بالحالية أو الحديثة تنم عن أنها الشكل النموذجي، وهي المستخدمة

---

١ (مغلي، ٢٠١٣)، ص: (١٠٧)

٢ (Alanazi, 2024)

٣ Badawi, 1985

في المدارس والجامعات والصحف والمجلات ومعظم المنشور التي طبعتها جامعة الدول العربية.

بمعنى أن اللغة العربية الفصحى الحديثة منفتحة وليست مصمتة كالكلاسيكية، فالحديثة تستطيع استيعاب أسماء الآلات الحديثة كمصطلح "ورشة عمل"، وكلمة "طائرة"، و"تلفون"، وكلمة "تلفزيون" إلخ...

ومما يجدر ذكره أن معاجم اللغة الفصحى الكلاسيكية والفصحى الحديثة تختلف من حيث الكتابة، فكما كان هناك معاجم قديمة للغة الكلاسيكية "لغة القرآن الكريم"، فقد تم إصدار معجم حديث، حيث يسمح بكتابة المفردات فيه بأشكال مختلفة عن تلك التي في المعاجم القديمة، على سبيل المثال: يقبل المعجم الحديث كتابة كلمة "مسؤول" بهذا الشكل بالهمزة على الواو، وتكتب أيضا بهذا الشكل "مسئول" والهمزة على الياء كأشكال صحيحة، في حين أن اللغة العربية الكلاسيكية تؤيد كتابتها على هذا الشكل (مسؤول) فقط كشكل صحيح، كما يسمح معجم اللغة الحديثة بتباينات مختلفة في النطق، مع التسامح مع تحقيق كلمة (فَقرة)؛ فيجوز فيها نطقها بفتح الفاء أو كسرها "فِقرة، وعلى العكس من ذلك، فاللغة العربية الكلاسيكية تعتبر أن "الفَقرة" هي النطق المؤهل الوحيد الذي أنتجه العرب القدماء.

توضح الأمثلة المذكورة أعلاه أن اللغة العربية الحديثة تسمح بمزيد من التنوع في النطق والكتابة في اللغة العربية الفصحى.

أما ما يتعلق بالنحو، فإن اللغة العربية الفصحى الحالية لا تختلف تماماً عن اللغة العربية الفصحى الكلاسيكية. فقد قام النحويون المعاصرون ببناء قواعد اللغة الفصحى في ضوء اللغة الكلاسيكية للغة العربية، فالاختلافات بين اللغة العربية الحديثة، والعربية الفصحى الكلاسيكية تكمن في المقام الأول في أسلوب المفردات

فقط.[١]

أما اللهجات العامية الحالية فهي اللهجات العربية غير الفصيحة التي يتم التحدث بها في دول مختلفة عبر العالم العربي، ويكتسب العرب لغتهم العامية الخاصة بهم كلغات أولى من آبائهم ويستخدمونها في التواصل معهم، مع أفراد أسرهم وأقاربهم وأصدقائهم ومجتمعهم بأكمله. ومع ذلك فإنهم "يتعلمون" اللغة العربية الفصحى كلغة ثانية فاللغة الفصحى الحديثة يستخدمونها في المدارس والكليات والجامعات، كما تستخدم في المجالات الحكومية كلغة رسمية.[٢]

إن وجود كل من اللغة الفصحى الحديثة، واللغة العامية في كل دولة عربية على حدة، يؤدي إلى ظهور ديغلوسيا بالإنجليزية: "diglossia" أو ازدواجية لغوية، وهو مصطلح اقترحه "فيرغسون" عام (١٩٥٩)[٣] يشير إلى الحالة التي يتم فيها استخدام مجموعة متنوعة عالية المكانة، والمراد هنا هي اللغة العربية الفصحى الحديثة المستخدمة في النظام التعليمي، بينما يتم استخدام مجموعة متنوعة ذات حالة منخفضة أي اللهجات العامية للمحادثات العادية.[٤]

الإبدال الصوتي في لهجات اللغة العربية في التراث العربي

تنبه الفراء لهذه الظاهرة محاولا تفسيرها؛ من خلال موقع الصوت وارتباطه بما بعده؛ كما قال فيمن يصير السين -إذا كانت مقدمة وجاء بعدها طاء أو قاف أو خاء أو غين- صاداً كقولهم: (الصراط، والسراط)، وقد علل مثل هذا الإبدال الصوتي؛ بالهروب من الثقل في النطق ومقاربة المخارج بين الصوت المبدل والمبدل منه، ووضح

---

١ (Ryding & Mehall, 2005)

٢ (Alanazi, 2024)

٣ (Badawi, 1985)

٤ (Alanazi, 2024)

اللهجات التي تؤثر في هذ الإبدال الصوتي.

أما ابن السِكّيت وهو عالمٌ نحوي، وأديب شهير، وراوٍ إماميّ من أصحاب الإمامين الجواد والهادي، فهو ممن عزا كثيراً من صور الإبدال إلى اختلاف اللهجات، على أنّه قد يحصل الإبدال ويقول به أبناء بيئة واحدة، وروى أنّه "حضره أعربيان من بني كلاب، فقال أحدهما: (إنفحة) والآخر (منفحة) ثم افترقا على أن يسألا جماعة من أشياخ بني كلاب، فاتفق جماعة على قول ذا، وجماعة على قول ذا، وهما لغتان."[١]

إنّ تقارب مخارج الأصوات هو الذي يؤدي إلى هذا الإبدال، وذلك حين أورد قول النعمان بن المنذر لخجل بن نصلة: "أردتَ أنّ تُذِيمَهُ فَمَدَهْتَهُ" قال أبو العبّاس: وقوله(فمدهته) يريد (مدحته) فأبدل من الحاء هاء لقرب المخرج، والعرب تقول: (جَلَحَ الرجل، يجلح، جلحاً)، و(جَلَهَ، يَجْلَهُ، جَلْهاً)، بمعنى واحد[٢]

أما في الصوامت فالمبرد قد أورد في المقتضب من الشواهد التي تؤكد أنّ القدامى تناولوا ظاهرة الإبدال بين الصوائت، وحصروا أسبابها في اختلاف اللهجات؛ كإبدال ضمّة الهاء في ضمير الغائب المتّصل في المفرد والمثنّى والجمع كسرة، وإن كان هذا الإبدال قد شاع مع ضمير الجمع بشكل مطلق، وعُزِي إلى بني كلب، فهم يقولون: "منهِم وعنهِم في منهُم وعنهُم.[٣]

كذلك إبدال فتح كاف الخطاب كسراً في الجمع عند فريق من العرب، فالمشهور أنّ جمهور العرب يضمّ كاف الخطاب للجمع مطلقاً، لكن ربيعة وبكر بن وائل يكسرون هذه الكاف إذا سُبقت بياء أو كسرة، نحو عليكِم وبِكِم."، وسمّيت هذه الظاهرة بالوكم.

---

١ (السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ١٩٩٨)، الجزء: (١)، ص: (٤٧٥)

٢ (المبرد، الكامل في اللغة، ١٩٩٧م- ١٤١٧هـ)، الجزء: (٢)، ص: (٩٧)

٣ (المبرد، المقتضب، ١٩٦٣م-١٣٨٨هـ)، الجزء: (١)، ص: (١٣٧-١٣٨)

الإبدال الصوتي في اللهجات العربية في علم اللغة الحديث

تُعد آراء دي سوسير هي اللبنة الأولى في بناء الدرس اللغوي الحديث ومنهاجه البحثي الذي فصل بين الدراسات التاريخية والدراسات التزامنية،[١] فقد فتح دي سوسير الباب في البحث اللغوي بعد وفاته عام ١٩١٣م، بعد أن نشر زملاؤه محاضراته عام ١٩١٥م، ثم جاءت فترة ما بين عام ١٩٣٠م إلى عام ١٩٥٠م، التي أسماها اللغويون في أمريكا الفترة البلومفيليدية؛ تقديرا لجهود هذا العالم في الدراسات اللغوية، وكانت اللبنات لوجود نظريات جديدة لعلماء كُثُر كبنجامين أليسون، وفيلما بيكيت[٢] وصولا إلى اللغوي الشهير نعوم تشومسكي، صاحب النظرية التوليدية التحليلية، وما يهمنا هنا هو معرفة مدى تأثر العرب بالدرس اللغوي الغربي الحديث، ومدى مناقشتهم لظاهرة الإبدال الصوتي من المنظور الحديث، وقد كان؛ فقد برزت أسماء عرضت لظاهرة الإبدال "كصبحي صالح" في بحثه "مظاهر الإبدال في كلام العرب" الذي أرجع الإبدال إلى تنوع اللهجات بعد فترات تطور، وتأثر فيها الصوت بغيره من الأصوات بسبب التجاور والتقارب،[٣]

كما عرض الدكتور إبراهيم أنيس لهذه الظاهرة؛ موضحا أنها نتجت كمظهر للتطور الصوتي، فالكلمة ذات المعنى الواحد حين ترد في المعاجم بنطقين مختلفين في صوت واحد من أصواتها، ففسرها على أن إحدى الصور الصوتية هي الأصل، ولابد لملاحظة ذلك أن نبين العلاقة الصوتية بين الصوتين الأصل والذي تطور منه.[٤]

الإبدال في اللهجات العربية الفصحى

---

١ (ساجية قوباع ونصيرة تيفرين، ٢٠١٤)

٢ (كمال الدين)، ص: (١-٥)

٣ (كللر ٢٠٠٠). ص٥١٢

٤ (أنيس، من أسرار اللغة، ١٩٦٦)، ص ٥٨.

عندما نطالع آراء الدارسين عن اختلاف اللهجات، نرى كثيراً من الأصوات التي تباين أداؤها بين قبائل العرب ولا سيما قريش وتميم؛ كالثاء والفاء في (لثام، ولفام)، والظاء والضاد، في (فاضت نفسه، وفاظت)، والسين والصاد في (السمخ، والصمخ)، والقاف والكاف في (قشطت وكشطت)، والجيم والياء في (صهريج، وصهري)، فلا يعقل أن يشترك العرب في شيء من ذلك إنما يقول هذا قوم وذاك آخرون [١].

ومما يدل على أن هذه الأحرف لهجات مختلفة ما رواه اللحياني (توفى سنة ٢١٥هـ) قال: قلت لأعرابيّ: أتقول مثل حَنَك الغراب أو مثل حلَكه؟ فقال: لا أقول مثل حَلَكه! [٢]

وقال البَطَلْيَوْسي (توفى سنة ٥٢١هـ) في شرح الفصيح: قال أبو بكر بن دريد، قال أبو حاتم: قلت لأم الهيثم: كيف تقولين؟ أشد سواداً مماذا؟

قالت: من حلَك الغراب، قلت: أفتقولينها من حنك الغراب؟

فقالت: لا أقولها أبدً.

وليست قصة الاختلاف في: (الصقر، والسقر، والزقر) عنا ببعيد، كما كان لإمام الصرفيين أبي عثمان المازني (توفى سنة ٢٤٩هـ) قصة مع الخليفة الواثق بالله؛ حين غَنَّت جارية بحضرته بقول العَرْجِيّ:

أظلومُ إن مُصابكم رجلاً ... أهدى السلام تحيةً ظلمُ

فاختلف من كان بالحضرة في إعراب "رجلاً" فمنهم من نصبه، ومنهم من رفعه، والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازني لقنها إياه بالنصب، فأمر الواثق بإشخاصه، يقول أبو عثمان: فلما مثلت بين يديه قال: ممن الرجل؟ قلت: من بني مازن، قال: أي الموازن؛ أمازن تميم، أم مازن قيس، أم مازن ربيعة؟ قلت: مازن ربيعة،

---

[١] (السيوطي، المزهر في علوم اللغة و أنواعها، ١٩٩٨)، الجزء: (١)، ص: (٤٦٠)

[٢] المرجع السابق، الجزء: (١)، ص: (٤٧٥)

فكلمني بكلام قومي، وقال: "با اسمك"؟ لأنهم يقلبون الميم باء والباء ميماً! قال: فكرهت أن أجيبه على لغة قومي؛ كيلا أواجهه بالمكر! فقلت: بكر يا أمير المؤمنين، ففطن لما قصدته وأعجب به.

فهذه الأمثلة كلها -تدل على ظاهرة الإبدال الصوتي الخاصة بتنوع اللهجات، فقد مرَّت بمراحل طويلة حتى تطورت فيها الأصوات، وتأثر بعضها ببعض، بسبب التجاور والتقارب في صفاتها ومخارجها.

الإبدال في لغة الحجازولغة تميم

أبرز اللهجات العربية القديمة أو كما يسميها القدماء "لغات" هي: لغة تميم، ولغة الحجاز، وما يهمنا هنا هو الإبدال، من خلال إبراز الاختلاف في النطق لدى كل لهجة عن الأخرى، ففي أصوات الحروف اختلاف بين تميم والحجاز، فالثاء عند تميم تقابل الفاء عند الحجازيين، فتميم: (لثام)، والحجاز (لفام)[١] ، وكذا (الأثاثي)، فإنها لغة تميم في الأثافي.

قال أبو زيد: "وبنو تميم في هذا المعنى: تلثمت تلثماً"[٢].

ومن ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: (وَفُومِهَا) بالفاء على لغة أهل الحجاز، وهو الثوم عند تميم[٣].

وقد نسبت إلى تميم ظاهرة صوتية تسمى: "العنعنة"، هو قلب الهمزة المبدوء بها "عيناً"، ومنها قول ذي الرمة: (أعَنْ ترسّمتَ من خرقاء منزلةً ... ماء الصبابة من عينيك مسجومُ)، أراد "أأن ترسمت"، ومنها ما أنشده يعقوب: (فلا تُهْلِكَ الدنيا عن الدنيا واعتملْ ... لآخرة لا بد عن ستصيرها)، أراد "لا بد أن".

---

[١] (السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ١٩٩٨)، الجزء: (١)، ص: (٤٦٥)

٢ (ابن منظور، ١٩٧٠)، الجزء: (١٦)، ص: (٥)

٣ (ابن منظور، ١٩٧٠)، الجزء: (١٥)، ص: (٣٤٨)

ومن الظواهر الصوتية الغريبة؛ الاختلاف بين الصوت الرخو "الظاء"، ونظيره الشديد وهو "الضاد"، فإننا نستنتج من كتب الرواية أن الظاء حجازية، والضاد تميمية، قال ابن سيده في "المخصص": "فاضت نفسه، خرجت، تميمية"[١]. وقال في موضوع آخر في غضون حديث عن "اضروري" بمعنى: أنه انتفخ بطنه من الطعام: إنه قد حكي عن أبي عمرو: "اطْرَوْرَى" بالطاء، ورواية أبي زيد "اظرورى" بالظاء، وأبو عمرو ثقة وأبو زيد أوثق منه، وقد سألت عنه بعض فصحاء الحجاز فوافقوا أبا زيد"[٢].

على أن النحاة واللغويين ينظرون إلى الموضوع نظرة أخرى، فلا يبالون بهذا الاختلاف بين لهجتي تميم والحجاز، وإنما يأخذون بعين الاعتبار ما استقرت عليه الأصوات المنطوق بها في لغة العرب الأدبية المثالية، ففي بعض الألفاظ تتعين الظاء، وفي بعضها تتعين الضاد، كما أن الصوتين يشتركان أحياناً في عدد لا يستهان به من الألفاظ.[٣]

من ذلك ما ذكره ابن مالك (توفي بدمشق سنة ٦٧٢هـ) في كتابه: " الاعتضاد في معرفة الظاء والضاد"، الذي لا يزال مخطوطا وقد نقل منه السيوطي[٤]فهو يجزم بتعين الظاء في الظُرْبَغَانة "الحية" والمماظ "المؤذي جيرانه"، والمظّة "الرمانة"، وحَبَظَ "امتلأ"، وحَمَظَ "عصر"، بينما لا يرى غضاضة في مشارة الظاء والضاد في فيض النفس، ومضاض الحسام، وإنضاج السنبل، وإعضآلّ المكان "كثرة شجره". ولكي يهوّن الحريري، صاحب المقامات على الطالب تمييز هذين الصوتين نطقاً، نظم من المقامة الحلبية شعراً تعليمياً جاء فيه:

---

١ (ابن سيده، ٢٠٠٥)، الجزء: (١٥)، ص: (٣٦)

٢ المرجع نفسه، الجزء: (٥)، ص: (٨٠)

٣ (الصالح، ٢٠٠٩)، ص: (٩٢)

٤ (السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ١٩٦٤م، ١٣٨٤هـ)، ص: (٥٣)

أيها السائلـي عن الضاد والظا ..... ء لكيـــلا تضلـه الألفـــاظ
إن حفظ الظاءات يغنيك فاسمع ..... ها استماع امرئ له استيقاظ
هي ظميـــاء والمظالم والإظـلام ..... والظلـــم والظبـــي واللحاظ [١]

ويقرب من الاختلاف بين الضاد والظاء ظاهرة الاختلاف بين الطاء والتاء، والصاد والسين، والقاف والكاف، فكما آثر التميميون الصوت الأشد -وهو الضاد- على الأخف -وهو الظاء- ظلوا على عادة البدو يجنحون إلى التفخيم، ففضلوا الطاء على التاء، فقالوا: أفلطني الرجل إفلاطاً، عوضاً عن: "أفلتني إفلاتاً". وفي هذا يقول صاحب المخصص: "وقد أبدلت الطاء من التاء في "فعلت"، إذا كانت بعد حروف من حروف الإطباق". قال: "وهي لغة تميم، قالوا: فَحَصْطَ برجلك، يريدون فحصت، وحِصْطَ، يريدون حصت" وفضلوا الصاد على السين فقالوا: "شمر عن صاقه" عوضاً عن "ساقه".[٢]

وقد أشار إلى هذا ابن منظور في مادة "سمخ" فقال: "السماخ الثقب الذي بين الدُّجْرَيْن من آلة الفدان. والسماخ لغة في الصماخ، وهو والج الأذن عند الدماغ، وسمخه يسمخه سمخاً، أصاب سماخه فعقره.. ولغة تميم الصمخ".[٣]

أما ابن جني فهو يسلك في هذا الجانب ضمن باب الإدغام، إذ لا يراه -كما ورد آنفا- إلّا تقريب الصوت من الصوت، ويعد منه تقريب الصاد من الزاي؛ لأن كليهما أسَليّ [٤] مخرجاً، صفيري صفة، نحو: مصدر ومزدر، والتصدير والتزدير، وعليه قول العرب في المثل: "لم يُحْرَم مَنْ فَزْدَله" أصله: فصد له، ثم أسكنت العين على قولهم في

---

١ (السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ١٩٩٨)، الجزء: (٢)، ص: (٢٨٨)

٢ (ابن سيده، ٢٠٠٥)، الجزء: (١٣)، ص: (٢٧٠)

٣ (ابن منظور، ١٩٧٠)، الجزء: (٣)، ص: (٥٠٤)

٤ الحروف الأَسَليَّة: (العلوم اللغوية) حروف مبدؤها أو مخرجها من طرف اللِّسان كالزَّاي والسِّين والصَّاد، حسب التصنيف القديم.

ضُرِبَ: ضُرْب، وقول الشاعر القطامي:

ألم يجز التفرق جند كسرى ..... ونفخوا في مدائنهم فطاروا

فصار تقديره: فصد له، فلما سكنت الصاد فضعفت به، وجاورت الصاد "وهي مهموسة" الدال "وهي مجهورة"، قربت منها بأن أُشمت شيئاً من لفظ الزاي المقاربة للدال بالجهر"[١].

إن تميم تجنح كثيراً إلى إدغام المثلين، وضممنا له ما سوف نذكره من تسكينها عين الفعل الماضي، وأواسط بعض الكلمات، لم نجد مشقة في رد هذا المثل إلى أصحابه من بني تميم.

وقد فضَّلَ التميميون القاف على الكاف فقالوا: "قشطت الجُلّ عن الفرس" بدلاً من "كشطته". قال أبو عبيدة (توفي في البصرة سنة ٢٠٩ هـ): "وقريش تقول: كشطت، وتميم وأسد وقيس تقول: قشطت، وفي مصحف عبد الله بن مسعود: "قشطت"[٢]، ومن هذا الباب، بلا ريب إلحاقهم القاف باللهاة حتى تغلظ جداً فيقولون: "الكوم" بدلاً من "القوم"، فيكون بين الكاف والقاف.

قال الشاعر من تميم:

ولا أكول لِكدْر الكَوْم: كَدْ نضجت ... ولا أكول لباب الدار: مكفولُ [٣]

ولئن عرفنا عن (فُقَيْم) من تميم إبدال (الياء جيماً) مطلقاً، فإن عامة تميم ترى العكس صحيحاً أيضاً، فتبدل الجيم ياء، فتقول: "صهريٌّ" وهي تريد "صهريج": نبه على ذلك ابن سيده في "باب الإتباع" لدى تعليله ما في قولهم: "حار يار، وحران يران، وحارّ جارّ" من الإتباع فقال: "ويمكن أن يكون بارّ لغة في جارّ، كما قالوا: الصهاريج

---

١ (ابن جني، الخصائص، ١٩٥٨)، الجزء: (١)، ص: (٥٣٥-٥٣٦)

٢ (القالي، ١٩٢٦م، ١٣٤٤ هـ)، الجزء: (٢)، ص: (١٣٩)

٣ (ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية، ١٩٦٤)، ص: (٢٥)

والصهاري، وصهريج وصهري، وصهري لغة تميم؛ وكما قالوا: شِيرَة لشجرة، وحقَّروه فقالوا: شِيَيْرَة".[١]

ولقد أدرك العلماء ما في ضروب الإبدال هذه من تنوع اللهجات، فلم يفسرها المحققون منهم بالمصادفة والاتفاق، ولا بتعمد العرب تعويض حرف من حرف، وكان لأبي الطيب اللغوي قولا يفسر هذه الظاهرة من خلال قوله: بأنها لغات مختلفة لمعانٍ متفقة: تتقارب اللفظتان في لغتين لمعنىً واحد، حتى لا تختلفا إلّا في حرف واحد، قال: والدليل على ذلك أن قبيلةً واحدةً لا تتكلم بكلمة طوراً مهمزة، وطوراً غير مهموزة، ولا بالصاد مرة وبالسين أخرى، وكذلك إبدال لام التعريف ميماً، والهمزة المصدرة عيناً كقولهم في نحو: (أن: عن)، لا تشترك العرب في شيء من ذلك، إنما يقول هذا قوم وذاك آخرون".[٢]

على أن صاحب كتاب دراسات في فقه اللغة يرى بقوله: لاحظنا في الشواهد على تخالف العرب في نطق الأصوات، أن تميم تجنح إلى الأشد الأفخم، لأنها بدوية، وأن قريشاً تختار الأرق الأنعم لأنها حظرية، وفي وسعنا أن نلحق بهذه الظاهرة الأخيرة ما لوحظ من حرص تميم على الضم -لخشونته- حين يحرص الحجازيون على الكسر لرقته.[٣]

ومن هذا كله يرى الباحث أن القدماء حاولوا تفسير ظاهرة الإبدال من خلال اختلاف اللهجات، وكان أبرز ما تم لديهم بأن ما يؤثر في هذا الإبدال هي البيئة التي تؤثر في اختيار صوت عن صوت آخر.

بعد أن تم عرض الفروق بين لهجتي تميم، وقريش -وهما اللهجتان الرئيستان بين لهجات العربية- أصبح يسيراً علينا أن نتصور نوع الخصائص التي تمتاز بها لغتنا

---

١ (ابن سيده، ٢٠٠٥)، الجزء: (١٤)، ص: (٣٤)

٢ (السيوطي، المزهر في علوم اللغة و أنواعها، ١٩٩٨)، الجزء: (١)، ص: (٤٦٠)

٣ (الصالح، ٢٠٠٩)، ص: (٩٦-٩٧)

الأدبية المثالية عن أخواتها من اللغات السامية بوجه خاص، وعن كثير من اللغات الأجنبية بوجه عام، فإن هذه الخصائص لا تميز لغة قريش لذاتها، بل لتمثلها خير ما في اللهجات العربية الصحيحة بالتوليد والاشتقاق، وخير ما في اللغات الأجنبية بالنقل والتعريف.

ذلك بأن العرب حين استصفوا لهجة قريش، وجعلوها لغتهم الأدبية المشتركة أثَّروا فيها مثلما تأثروا بها؛ فصدَقَ على لهجة قريش ما يصدق على كل اللغات من قوانين التأثر والتأثير، وهي قوانين لا تكاد تتخلف إذا درسنا اللغة على أنها ظاهرة إنسانية، ولذا فإن ظاهرة الإبدال التي تم دراستها وتفسيرها باختلاف لهجات العرب أو كما يسميها القدماء لغات العرب، فقد أصبحت بعد وجود لغة قريش السائدة قوانين ثابته، حتى جاءت اللهجات في البلدان العربية والإسلامية؛ خضوعا للتطور ومتغيرات أخرى؛ كانقسام الأقاليم، والفروق البيئية، والجغرافية، وكذا تأثير الاستعمار الغربي للبلدان العربية، والذي جعل اللهجات أكثر سهولة في التحدث بين العامة، إلا إنَّ أبرز التغيير الحاصل بين اللغة العربية الفصحى والعامية الحديثة؛ هو الإعراب والاختصار في الألفاظ، وكما أن هذه الظاهرة تعتري أصوات اللغة العربية لدى ناطقيها، فهي تظهر جلية واضحة لدى من تربى على لغة أم بعيدة عن العربية، ثم بدأ بتعلم العربية لاحقا، كمتعلمي اللغة العربية كلغة أجنبية في الهند، حيث يتعلمون اللغة العربية الفصحى؛ لكن بسبب عامل البيئة الخاص بالهند ظهرت ظاهرة الإبدال واضحة في النطق باللغة الفصيحة لدى طبقة الهنود المتعلمين للغة العربية، وقد لاحظ الباحث هذا الإبدال في بعض أصوات اللغة العربية لديهم، وجمع آراء العلماء القدماء والمحدثين حول هذه الظاهرة، وبعد أن رأينا كيف تأثرت الظاهرة باللهجات في البلاد العربية، يمكننا تطبيق هذا في تأثير اللغة الأم على ظاهرة الإبدال لدى متعلمي اللغة العربية الناطقين بغيرها، وللفائدة القصوى، ولفهم الظاهرة بشكل أشمل نورد آراء العلماء العرب القدماء حول هذه الظاهرة.

اختلاف اللهجات كعامل من كعامل الإبدال

الإبدال ظاهرة صوتية، وردت في اللغة العربية المشتركة بشكل لا ينكر، وقد مثلت مستويات من التطوّر التي مرّت بها، وهذا من شأنه تأكيد أنّ التطوّر الصوتي، واختلاف اللهجات يعدّان عاملان أساسيان في نشأة ظاهرة الإبدال كما أقرّت الدراسات اللغوية القديمة منها والحديثة، وأن تعدد اللهجات التي مع تعدّد فروعها واختلافها، إلا إنها في الأخير تلتقي في مصّب واحد هو اللغة العربية المشتركة.

من الثابت أنّ كلّ شيء في الوجود يخضع إلى حتمية التطوّر من جهة، وحتمية الزوال من جهة أخرى، واللغات الإنسانية تتباين في استجابتها لهذين العاملين، كما تختلف في مبلغ انتشارها "فمنها ما تتاح له فرص مواتية، فينتشر في مناطق واسعة من الأرض ويتكلّم به عدد كبير من الأمم الإنسانية كالعربية قديماً، ومنها ما تسدّ أمامه المسالك فيقضى عليه أن يظلّ حبيساً في منطقة ضيّقة من الأرض وبين فئة قليلة من النّاس، ومنها ما يكون وسطاً بين هذا وذاك فلا تتّسع مناطقه كلّ السّعة ولا تضيق كلّ الضيق.[١]

والظاهر في قوانين اللغات، أن أيّا منها متى ساحت وانتشرت في بقاع واسعة من الأرض وتكلّم بها أجناس وطوائف مختلفة من الناس، عليها الاحتفاظ بوحدتها وأنظمتها اللغويّة الأولى أمداً طويلا، بل لا تلبث أن تتشعّب وتنشطر إلى لهجات شتّى، تسلك كل واحدة منها سبيلا أو نهجاً يناسبها.[٢]

اللغة العربية لم تنجُ من هذا القانون العام، فقد أخذت تتفرّع منذ أقدم عصورها إلى لهجات كثيرة يختلف بعضها عن بعض، وتختلف عن الأصل الأوّل الذي انتسلت منه في كثير من المظاهر الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية، كما تميّزت الرقعة الجغرافية التي انتشرت بأنها شاسعة ومتنوّعة الأقاليم، وغلب على أهلها الترحال والتجوال.

---

١ (وافي، نشأة اللغة عند الإنسان و الطفل، ١٩٩٢م)، ص: (١٠٧-١٠٨)

٢ المرجع نفسه ص: (١٥٦)

فالجزيرة العربية كانت مسرحاً كبيراً، توزّعت العرب في أرجائه مشكّلة قبائل شتّى، تمركزت بين الشرق والغرب والشمال والجنوب. واختصّت كلّ قبيلة أو جماعة متحدّة في ظروفها الطبيعيّة والاجتماعية بلهجة خاصّة، تتميّز عن غيرها بِسِمَات صوتية ونبرات خاصّة، تجعلها منفردة، إلى جانب بقائها مشتركة في بعض الأصول والأسس مع أخواتها، وإن اختلفت عن بعضها في كثير من المظاهر اللغوية.

الخاتمة

في ختام هذه الدراسة، يتضح أن استبدال الأصوات يعد ظاهرة لغوية معقدة تحمل في طياتها دلالات عميقة عن التنوع الجغرافي والاجتماعي للغة العربية. وقد أظهرت التحليلات أن هذه الظاهرة ليست مجرد انحراف صوتي عشوائي، بل تعكس أنماطاً منتظمة مرتبطة بالتطور التاريخي والاجتماعي للهجات العربية. كما تسهم هذه الظاهرة في تشكيل الهوية اللغوية وتوسيع حدود الفهم الصوتي والصرفي.

إن النتائج التي توصلت إليها الدراسة تسلط الضوء على أهمية تناول استبدال الأصوات كموضوع بحثي متعدد الأبعاد، ما يفتح المجال أمام دراسات مستقبلية تركز على تأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية الأخرى. ومع استمرار تطور اللهجات العربية، تبقى هذه الظاهرة جديرة بالبحث لفهم الديناميكيات المعقدة التي تشكل اللغة وتحدد هويتها.